قراءة غير محايدة في شعر "ممدوح عدوان" (١)

غلاف ديوان « يألفونك .. فانفر »

الشاعر ممدوح عدوان

نحن لسنا بصدد دراسة شعر « ممدوح عدوان » عاصمة الشعر السوري وجذعه الاخضر رغم الفؤوس الكثيرة التي حاولت تحطيب هذا الجذع في ربيعه المستمر .

انما اردنا الرد على الهجوم اليميني الذي يحاول النيل من « ممدوح عدوان » كونه ركيزة من ركائز ثقافتنا التقدمية .

ان حضور ممدوح عدوان الثقافي والسياسي لم يكن عبر الشعر فحسب ، بل وعبر المسرح والرواية والمقال الادبي والسياسي وغيرها .. مما دعا البعض للقول «تحزيرا» بأن ممدوح سيكون زعيما يساريا(!!)

« يألفونك .. فانفر »

فدواوين ممدوح وكتبه المسرحية والادبية كثيرة كما اشرنا ، ولكننا سنتناول هنا ديوانين له صدرا مؤخرا ، الاول « يألفونك .. فانفر ★ » والثاني « امي تطارد قاتلها ★★ » ، وفي هذين الديوانين امكانية هائلة لمعرفة « ممدوح عدوان » شعريا وسياسيا ففي ديوان « يألفونك .. فانفر » التي كتبت قصائده بين عامي ١٩٦٩ - ١٩٧٦ .. نتعرف على شعر ممدوح من مختلف جوانبه ، العاطفي ، الاجتماعي ، القومي ، الطبقي ، والسياسي دائما . فقصيدته العاطفية تستند الى ارضية سياسية اجتماعية ، وقصيدته السياسية محفوفة بالعواطف والهموم الذاتية والموضوعية . ولكن رغم ذلك نستطيع ان نستفرد بقصيدته « لو في الاصابع ذاكرة » التي تشف عن غربة ممدوح الانسانية في مجتمع رأسمالي ، حيث انه يريد من المرأة ارتجاج النهد وليس لحمه ، يريدها بردا تشربه العظام ، دفئا يشاع في مسامه ، يريد ان يشرب رجفات عينيها ويمتص ليونتها ونعومتها وتراخيها وبياضها . ان المرأة لدى ممدوح عدوان زهرة في الجفاف وينبوع في رمل الوطن : « تقنا لوان لقاءنا يضحي بلاجلدين / لو جسم يذوب بجسم حاضنه / يغش بحالة / غير التقرب / غير معنى الالتحام / نضحى كعاصفة / كلانا الريح / في اللقيا تذوب الريح في الريح / نستقبلين جموحي الظمآن / نسقي ونشرب / نمزج العرقين والانفاس / تشتبك المسام / لو اننا ارتحنا بلا صمت / ولا صوت / وأمسكنا بكفينا الكلام » .

وهذا الجوع الغريب للمرأة ليس صوفيا كما يبدو للوهلة الاولى ، انما هو تعبير عن افتقاد انيس ما في الغربة داخل الوطن ، افتقاد جدار يستند اليه الانسان ليستعيد قوته لمجابهة رياح الاعداء التي تهب من الداخل والخارج .

« ليس حزيرانيا »

حاول بعض النقاد اليمينيين نعت ممدوح عدوان « بالحزيراني » بالمعنى السلبي للكلمة . واعتبروه ندابا بكاءً ، وداعية يأس ... ولدحض آراء هؤلاء النقاد المتفائلين بمقدرة الانظمة على دحر الاعداء وتحرير فلسطين والاوطان المحتلة ، نتوقف عند قصيدة ممدوح « الحرب تزهر اطفالا » والتي قدمها بهذا المقطع من ديوانه الثاني « تلويحة الايدي المتعبة » : ظمأى نبحث عن قطرة ماء / ننتظر الغيث فلا يأتي / من اي سماء / كنا كوما تتحرك / لا نعرف ان كنا موتى ام احياء / حين اتتنا طائرة الاعداء / قصفتنا / قصفتنا / قصفتنا / القت كل قنابلها / فتفجر نبع الماء » . ان ممدوح هنا لا يدارك الاعداء وطيرانهم كما حاول اصحاب الادمغة المغسولة ان يفهموا ، ولكنه يقول بوضوح : ان حزيران كان نتيجة ركود الواقع العربي وتخلفه وسكونيته . ولم يعتبر العدوان هو بديل هذا الركود بل اعتبر نبع الماء هو بديل الانظمة العاجزة ، ونبع الماء هنا هو الثورة الفلسطينية التي كانت نتيجة رئيسية من نتائج حرب حزيران .

وقد كان ممدوح وما يزال واثقا بقدرة الجماهير ، ولكنه يائسا من الانظمة ومكتشفا عجزها وضحالتها امام الاعداء :

« من سيبقى غيرنا في الحلبه ؟
حينما يقتحم الموت صفوف الامة المضطربه ؟
حين يلقي رمحه خصما ويدعو للنزال
حين ينفضّ من الساح الرجال
تكنس الريح وراء الزعماء الجلبه
وعراة نبدأ الحرب فنكسوها وتكسونا دماء
فلمن سوف تكون الغلبة ؟ » .

« الحب والوطن ثانية »

الوطن والحبيبة شيء واحد لدى ممدوح عدوان ، ولكن للحصول على الوطن لا بد من الحرب ، وللحصول على الحبيبة لا بد من الحرب ايضا . وهكذا تصبح « الحرب » هي طريق الحب . والاستسلام للاعداء ، او للعلاقات الاجتماعية المتخلفة السائدة ، يعني التخلي عن الوطن والحبيبة ، وهذا التخلي هو الموت .. الموت وليس الشهادة .

الشاعر « علي الجندي »

★ صدر ديوان « يألفونك .. فانفر » عن منشورات اتحاد الكتاب العرب . دمشق ١٩٧٧ .

وهو يقع في حوالي ٧١ صفحة من القطع المتوسط ، تضمن سبع قصائد ، ثمنه ٣ ل.س او ما يعادلها .

★★ صدر ديوان « امي تطارد قاتلها » عن م.ت.ف. الاعلام الموحد ، منشورات فلسطين الثورة ، وهو يقع في حوالي ٨٥ صفحة من القطع المتوسط ايضا ، تضمن خمس قصائد ، ثمنه ٦ ل.ل. وما يعادلها .

يقول الشاعر في قصيدة « هذا هو الحب اذن » :

« مدرك ان بيني وبينك هذي الصحارى وهذا الزمن / مدرك ان بيني وبينك / جوعا وعريا / سماء وبحرا / طفاة وجند غزاة / لحى ودمى / عسسا وعيونا / وبيني وبينك قهر الذي يزرع القمح ثم يجوع / وحرقة من قدم الشهداء / وعاش غريبا بأرض الوطن / مدرك / غير اني انتقيتك / آخر ما ظل يفصلني عن ضريحي / واني اغير اليك / فقي / ان دوني وراءك / اني هويت / فقي / ان موتي وراءك لا تخذليني / اذا لم اجد حصنك الان / اسقط في شرك الموت / ثم اغيب ببسمته الساخره » .

« الوطن المنفى »

بعد « ١٩٧١ » زمن كتابه قصيدة « هذا هو الحب اذن » يتحول الوطن الى منفى ، ويقول ممدوح بجرأة ان الخط السياسي الذي تبناه سابقا كان خاطئا . وان الطريق الذي سلكه الى الوطن الاشتراكي اصبح جدارا . ففي قصيدته « وجهت وجهي » ١٩٧٥ يقول : « اي شيء اقول عن البرق حين يصير عجاجا / عن الدرب حين تصير جدارا / عن الصحراء التي تتقشر كي / وابعد كل المسافات بيني وبينك ، رجوعي اليك / كنت لي وطنا واتيتك / كيف تحولت منفى ؟ » .

ومع ذلك فالشاعر مصر على العشق ، عشق الوطن - المنفى ، والحبيبة - المبعدة ، فالحب مرض الشاعر المزمن ، حيث يقول في قصيدته « وحدك البرق » ، مخاطبا البلاد الحبيبة : « ابصرت حولي العذاب متاعا / انا ارمل الدهر / اعمى الرجولة / لو كنت بكر العمى / لم افاجأ ببرقك / ثم اسكاب الدجى / لو تحنين ، / لا تسألين / « ترى ما بك الان ؟ » / تعترفين بأنك بي / حاورتني أنظف من السقب المرضيّ » .

« تدمر »

الذي يعرف تدمر ، يفهم قصيدة ممدوح « نقوش تدمرية » . تدمر هي المدينة السورية التي بنت « زنوبيا » فيها حضارة عريقة ، لم يبق منها سوى الآثار ، بعد ان تحولت الى منفى في داخل البلاد ، مشهورة بسجونها التي يدخلها من لا امل بعودته . الشاعر « عدوان » يصرح باسم سعف النخل في الصحراء :

« يا عبد اللات / « سيفك مدفون في غار حراء / « اذهب للغار تشاهد رجلا يتعبد / « قف بالباب ، وناد : محمد / « ليجيبك ، يا عبد الله / « ينفض عن عينيه كسل النجوى / « وتسيران بسيفين ، / فينتفض الفقراء / « ويعيدون النبع الى الصحراء » .

« العياذ بالجرح »

عن علاقة الشاعر بالسلطة ، عن محاولات التدجين التي استجاب لها الكثير من المثقفين والشعراء ، ومهداة الى الشاعر « علي الجندي » كانت قصيدة ممدوح « العياذ بالجرح » . وعلي الجندي ، وممدوح يجمعهما تاريخ شعري وسياسي واحد ، والفرق بينهما ان علي كان وما زال وجوديا في تفكيره وفي شعره ، بينما ممدوح عدوان كان وما زال يبحث عن حركة الجماهير وهموم الجماهير ليمنح نبض شعره واحاسيسه منها ، ولكي لا نغمط عليا حقه فانه حافظ حتى الان على موقف ليس سيئا نسبة لبقية الشعراء ، واتسجاما مع وجوديته ! رفض التدجين الكامل واختار الظل والصمت فيه احتجاجا على ما وصلت اليه الحال .

ولكن ممدوح عدوان يقول له :

« كنت تغضب جرحا
فجاء غناء وتسلية
وتواطأت مسترخيا
عند لين التحيةُ والالفة
ارتحت
طامنت
اخفيت نصفك
نصف الصراخ
ونصف التغرب
نصف الكراهية
ارتحت ؟
ماذا ستبقي لديك التقية ؟
هذا القبول لذل الطوى ؟
والتهيؤ كي تحتويك الشرائق
في الاسرة ،
الزوجة
البيت
جدول توقيعك
المهرجان
العلاوة ؟
فاصرخ : اعوذ من الصمت في الجوع
والضحك بعد الاهانة
والخوف باسم القناعة
واصرخ : اعوذ من النفس
وهي تغالب كي تكتفي بالفتات
الدروب حواليك ملأى بعاسيب
كل ينادي الى طبق
ويطالب ان تتخفف ..
من صرخة الفقر
او من هموم البلاد ..
التخفف من وطن سيمكن من قنصه
مرة سوف تأكل
ثم تضيع البلاد
وتبقى تغني
ويسمعك الفقراء بلا فائدة » .

يتبع ...

مجلات ثقافية

"مواقف" الجديدة-قديمة

صدر العدد رقم « ٣٤ » من مجلة « مواقف » التي يصدرها الشاعر « ادونيس » في بيروت ، وقد جاء العدد ليقفز بطريقة غريبة عن الحرب الاهلية اللبنانية والمتغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية التي تبعتها ، وكأن المجلة توقفت لاسباب فنية لمدة سنتين ونيف ثم عادت للصدور .

الا ان المجلة تضمنت افتتاحية نافرة في العدد كتبها الياس خوري، بعنوان « المائدة » ، ومما جاء في هذه الافتتاحية : « سؤال الواقع هو تحدي الخروج من هامش الموت والدخول في هامش الحياة . بين الهامشين مسافة قصيرة جدا ، لكننا لا نستطيع ان نقطعها في زمن الحروب التي لا تنتهي الا اذا حطمنا المائدة التي ترصف فوقها الكتب كما ترصف اطباق الطعام . وتحطيم المائدة يعني دخول من اخرج من الفعل الى الفعل . اي ممارسة لما صنف على انه « غير الادب » وتحويله الى ادب لانه الادب الحقيقي » .

وقد قال الياس في افتتاحيته : « هل من ضروري ، كي نخرج من الحرب التي بدأت بثيابنا القديمة؟ هل تستطيع « مواقف » ان تكون المواقف التي لم تكنها في زمن جديد يتكون ؟ ولماذا لا نمزق الاوراق القديمة ونبحث عن زمن آخر هو الزمن الذي يتفجر فينا » .

وقد ضم العدد « ٣٤ » صيف ١٩٧٨،اضافة الى تقديم «ادونيس»، وافتتاحية « الياس خوري » مقالا بعنوان « المغرب ، افقا للفكر » كتبه « عبد الكبير الخطيبي » ومقالا بعنوان « تأملات حول البداية » كتبه ادوارد سعيد وقصائدا لكل من « انسي الحاج » «سمير الصايغ» ، «روث ابو ديب»، « جون وين » ، « بيتر ليفي » و « اورخان ميسر » ودراسة نفسية عن قصيدة الشاعر الكبير « بدر شاكر السياب » : النهر والموت ، للناقدة خالدة سعيد . وشارك في العدد ايضا كل من « جمال شحيد » و « كمال ابو ديب » ، و « امين الباشا » .